شخصية العدد

جمال زكريا قاسم

عميد مؤرخى الخليج العربى

أ. د. محمد على حله

جمال زكريا قاسم
عميد مؤرخى الخليج العربى

إبان اجتماع اللجنة العلمية لمركز تاريخ مصر المعاصر فى ربيع عام ٢٠٠٧؛ اقترحتُ أن يكون الدكتور جمال زكريا؛ هو شخصية العدد السابع من مجلة مصر الحديثة التى ستصدر فى مطلع عام ٢٠٠٨، وكان يحدونى الأمل فى أن يُكَرَّمَ العلماءُ وهم على قيد الحياة؛ أما التكريم بعد الرحيل فأمره مُوكَل إلى المولى سبحانه وتعالى؛ وطلبت إلى الدكتور يونان لبيب رزق أن يتفضل بالكتابة عن زميل دراسته ورفيق دربه وقد رحب الرجل، بيد أن د. جمال أبى ذلك مفضلاً أن يكون شخصية العدد هو الدكتور عمر عبد العزيز وأن الدراسة الخاصة بذلك سيكتبها الدكتور جمال حجر، وهو ماحدث فى الواقع؛ حين دفعنا بالمواد التى تضمنها العدد المذكور.

وعندما بدأنا فى تجهيز المواد التى ستنشر فى العدد الثامن من مجلتنا هذه؛ اتفقت مع د يونان على أن يوافينا بالمقال الذى سبق الاتفاق عليه؛ فأكد وعده، ولكن لا تأتى الرياح بما تشتهى السفن، فقد تعرض د. جمال فجأة لبعض المتاعب الصحية دخل على أثرها المستشفى، وعاده زميله وصديقه د. يونان الذى كان يعانى أيضاً من بعض الآلام، وتمنيت على الله سبحانه وتعالى أن يعبر جمال الأزمة التى حلت به وأن يخفف من آلام صديقه يونان، ولكن كان قدر الله أسبق حيث جاز جمال زكريا إلى ربه فى ١٩ ديسمبر ٢٠٠٧، وبعد أقل من شهر وفى ١٥ يناير ٢٠٠٨، لحق به رفيق دربه يونان رزق، وهكذا كانت الأقدار؛ فلا جمال قرأ ما سيُكْتب عنه، ولا يونان تمكن من الوفاء بوعده؛ لأن قضاء الله كان حتماً مقضياً.

وفى فبراير٢٠٠٨، تم عقد أول اجتماع لأعضاء اللجنة العلمية؛ بعد وداع المؤرخين والعالمين الجليلين"جمال و يونان"، وحضره أ د/ محمد صابر عرب رئيس الهيئة، حينذاك استقر رأى الزملاء أن يتصدى صاحب هذا القلم للكتابة

عن جمال زكريا؛ ليكون هو شخصية العدد الثامن من مصر الحديثة، وامتثلت للطلب برغم أننى كنت على يقين بأن هذا الأمر صعب على القلب، فكيف أكتب عن شخصية أحببتها وكان هو وبيته وأسرته؛ متنفساً لى ومخرجًا يبعدنى عن سفاسف الحياة ومصاعبها، وبدأ الصراع النفسى الداخلى؛ فبينما انشغل العقل بكيفية تناول هذه الشخصية الفذة علماً وخلقاً، فقد أبى القلم أن يطاوع صاحبه، وبشىء من الصبر وترويض النفس؛ مضيت فى إعداد هذه الدراسة، ومع بداية مارس ٢٠٠٨، ، ذهبت مصطحباً ابنتى للقاء أسرة جمال زكريا، وكانت الزيارة الأولى بعد أن بات جمال فى رحاب الله، واستقبلتنى السيدة حرمه ذو المنبت الطيب، وابنته مروة الشابة التى تخرجت فى الجامعة الأمريكية وتتسم بالشفافية ورهافة الإحساس، وابنه دمث الخلق المقدم مهندس طارق، وكان فى صحبته زوجته وطفلتيهما(هنا وحبيبة) ولم أكن أتصور بعد ثلاثة أشهر من وداعه؛ وفى هذا الدفء العائلى؛ أن يُطِلَّ الحزن والبكاء ليلف هذا اللقاء؛ ولما لا ؟! فهو الزوج الحبيب والأب الحنون والصديق الوفىّ.

ونحن أسرة تحرير مجلة مصر الحديثة؛ إذ نعبر عن شديد حزننا على فراق الأستاذ والزميل والصديق؛ فإن هذه الدراسة هى تعبير صادق عما تجيش به نفوسنا بل ومشاعر كل من اقترب أو تعامل مع المؤرخ الكبير جمال زكريا.

جمال فى مسيرة الحياة

فى يوم الثالث والعشرين من سبتمبر ١٩٣٢ كان ميلاده بمدينة الإسكندرية، وفى اليوم التاسع عشر من ديسمبر ٢٠٠٧، غادر دنيانا وبات فى رحاب الله، وبين التاريخين كانت رحلة الحياة، وكانت له فيها محطات رئيسة، بدأها من عاصمة المحروسة" القاهرة" وفيها انطلق منها الشاب الوسيم جمال زكريا؛ حين حصل فى مايو ١٩٥٥، على الليسانس فى التاريخ من كلية الآداب جامعة عين شمس، ومن ذات الجامعة، وفى ذات الشهر من العام التالى؛ نال الدبلوم العامة فى التربية وعلم النفس من معهد التربية للمعلمين، وفى شهر مارس ١٩٥٩، أى

فى أقل من ثلاث سنوات كان الشاب قد حصل على ماجستير فى التاريخ الحديث بتقدير ممتاز من ذات الكلية والجامعة. ومن الملاحظ أنه فى العام التالى"١٩٦٠" اشترك فى تأليف كتاب عن" زنجبار" فى عدد من سلسلة الألف كتاب التى كانت تصدرها وزارة التربية والتعليم بالقاهرة، أى أن نجمه بدأ يبزغ فى مجال التأليف العلمى وهو ما يزال بعد مدرساً مساعداً.

وفى مارس ١٩٦٤، نال الدرجة العلمية الرفيعة" الدكتوراة" فى التاريخ الحديث مع مرتبة الشرف الأولى، وأخذ يتدرج فى سلك أعضاء هيئة التدريس بجامعة عين شمس، حيث عُيِّن فى مايو من ذات العام، مدرسًا للتاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب، وإبان شغله لهذه الدرجة سافر إلى ليبيا، خلال عام ١٩٦٨، للاشتراك فى مؤتمر عن" ليبيا عبر العصور" عُقد فى جامعة بنغازى.

وفى سبتمبر من العام التالى"١٩٦٩"، حصل على درجة أستاذ مساعد؛ ثم درجة أستاذ فى مارس ١٩٧٥، وبداية من ذات العام وخلال سنوات متفرقة، استمرت لأكثر من أحد عشر عاما حتى عام ١٩٩٣، رأس جمال زكريا قسم البحوث والدراسات التاريخية بمعهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية؛ وفى ذات السنوات تقريبا، شغل جمال زكريا مناصب إدارية وعلمية رفيعة، تمثلت فى تعيينه وكيلاً لكلية الآداب لشئون التعليم والطلاب١٩٧٧– ١٩٧٨، ومن الواضح أنه اكتسب محبة وثقة زملائه وأساتذته حيث أنتخب عميدًا للكلية عام ١٩٧٨، وفى العام التالى ١٩٧٩ وجهت إليه وإلى زميله وصديقه الوفى د. اسحق عبيد دعوة كأساتذة زائرين إلى كلية رويال هولواى التابعة لجامعة لندن، وأسفرت زيارتهما، التى استغرقت بضعة أسابيع عن إلقاء محاضرات وإلى عقد بروتوكول للتعاون العلمى والثقافى بين جامعة عين شمس ورويال هولواى كولج، وفى خلال وجودهما بلندن وجهت لهما دعوة للاشتراك فى مؤتمر دراسات البحر المتوسط الذى نظمته جمعية دراسات البحر المتوسط بجرينتش وتم اختيارهما ليكونا عضوين شرفيين فى تلك الجمعية.

وفى عام ١٩٨٠، أُعير إلى كلية الآداب بجامعة الإمارات العربية؛ حيث رأس قسم التاريخ بها حتى عام ١٩٨٤، ولم يكد يحط رحاله فى أعقاب عودته إلى الوطن حتى سافر للعمل أستاذاً زائراً فى جامعات الكويت والموصل ووهران، ثم عاد إلى الوطن، وفى السنوات بين عامى ١٩٨٧ و١٩٩٠، عُينَ رئيساً لمجلس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة عين شمس، وعقب بلوغه السن القانونى فى سبتمبر١٩٩٢، عين أستاذًا متفرغًا، ثم أعير فى العام التالى إلى جامعة الكويت، وظل بها بضعة سنوات عاد بعدها إلى كليته؛ حتى عُينَ أستاذًا غير متفرغ فى سبتمبر ,٢٠٠٢

وسواء كان أستاذاً عاملاً أو متفرغًا أو غير متفرغ، أو كان فى وطنه أو خارج الوطن؛ فإن جمال زكريا المؤرخ؛ لم يهدأ يوما عن متابعة البحث والتنقيب فى ميدان التاريخ الحديث، يشهد على ذلك أن المناصب الإدارية التى شغلها أو المهام العلمية التى دُعى إليها أو كُلف بها شرقاً وغرباً، أو شمالاً وجنوباً، كانت دوماً مصحوبة أو يعقبها بحوثاً غاية فى الرصانة والدقة والشمول ومن ذلك:

● مهمة علمية إلى الجمهورية الإسلامية الموريتانية ثم إلى المكتبة الوطنية ومعهد اللغات الشرقية بباريس؛ وقد كُلفَ بها من قِبلَ منظمة التربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية، وقد أسفرت هذه المهمة عن دراسة بعنوان" الجمهورية الإسلامية الموريتانية"، نشرها معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٧ .

● كُلِفَ من جامعة الكويت بالسفر إلى دور الوثائق البريطانية للإطلاع على وثائق الخارجية البريطانية ووزارة الهند والمستعمرات والعلاقات الخارجية لدول الكومنولث؛ وذلك للحصول على الوثائق المتاحة والخاصة بتاريخ الخليج العربى، وقد وضعت بعض تلك الوثائق فى مؤلفه "مختارات من وثائق الكويت والخليج العربى" المحفوظة فى دور السجلات البريطانية، نشرته جامعة الكويت فى عام ١٩٧٢، ويقع فى ٢٨١ صفحة؛ بالقسمين العربى والانجليزى.

● إبان توليه رئاسة قسم التاريخ بمعهد البحوث والدراسات العربية؛ سافر إلى الولايات المتحدة، أستاذاً باحثاً بمركز تاريخ الهجرة بسان بول جامعة مينسوتا، قدم بعدها دراسة هامة عنوانها" العرب فى أمريكا دراسة لتاريخ الهجرة العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية"، نشرها المعهد عام ١٩٨٩، ويقع فى ٣٣٦ صفحة.

● وإلى جانب هذه المهام العلمية شارك جمال فى العديد من المؤتمرات والندوات العلمية التى عقدت فى كثير من الجامعات ومراكز البحوث العلمية والمؤسسات الثقافية فى مصر والدول العربية والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية ومن بينها :

● المؤتمر الدولى للتاريخ والذى عقد فى بغداد ١٩٧٣، وفيه قدم جمال بحثًا علميًا رصيناً دحض فيه مسألة إدعاء إيران بملكيتها لبعض مناطق وجزر من الخليج العربى بدعوى أنها قد سيطرت عليها فى القرنين السابع والثامن عشر، وفضلاً عن تمسك إيران بتسمية الخليج" بالخليج الفارسى" فإن أبرز مثال على الإدعاءات هو إبراز الأدلة والشواهد التاريخية بشتى الوسائل وفى عدة مناسبات بتبعية البحرين لها، ولم يكتف الرجل بذلك بل ظل يدافع عن حق دولة الإمارات فى الجزر التى تسيطرعليها إيران بإدعاء ملكيتها، وقد سجل ذلك فى دراسة بعنوان «الإدعاءات الإيرانية فى البحرين والخليج العربى»، نشرت فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية القاهرة ١٩٧٤، ثم فى دراسة أخرى بعنوان" النزاع العربى الإيرانى حول جزر الخليج الثلاث" (أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى) نشرت فى العدد الأول من مجلة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة فى مارس١٩٩٣ .

● فى عام ١٩٧٥ حصل مؤرخنا على درجة الأستاذية، وهى قمة السلم الأكاديمى، عندئذ لم يتوقف كما يفعل الكثير منا عندما يتحصل على هذه الدرجة، أو يتباطأ كما يفعل البعض؛ بل مضى صاحبنا فى أبحاثه العلمية التى

اتسمت كعهدنا بها بالرصانة والمنهجية بل اتسعت آفاقها، حيث انطلق، فى ذات العام وحتى ١٩٧٧، ليشارك فى العديد من الندوات العلمية ومنها:

● الندوة العلمية العالمية لمركز دراسات تاريخ الخليج العربى، عقدت بجامعة البصرة عام ١٩٧٥، وقدم فيها بحثًا تناول فيه" تطور الوعى البترولى فى الخليج العربى".

● مؤتمر تاريخ شرق الجزيرة العربية، الذى عقده اتحاد المؤرخين العرب بالعاصمة القطرية الدوحة ألقى فيه بحثاً عن" أثر الاستعمار الأوروبى فى تفكيك الروابط بين الخليج العربى وشرق أفريقيا".

● مؤتمر مصادر تاريخ الجزيرة العربية الذى عقد فى جامعة الرياض عام ١٩٧٦، قدم فيه بحثًا عن" الدوافع السياسية لرحلات الأوروبيين إلى نجد والحجاز فى القرن ١٩".

هذا إلى جانب الندوات المتعلقة بتاريخ مصر وأفريقيا والعرب الحديث والتى عقدت فى مصر؛ وشهدتها كل من الجمعية المصرية للدراسات التاريخية وسيمنار التاريخ الحديث بجامعة عين شمس ومركز بحوث الشرق الأوسط وجامعة القاهرة ومعهد البحوث والدراسات الأفريقية التابع لذات الجامعة، وكذلك المؤتمرات والندوات التى عُقدت خارج مصر فى إطار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت ومنتدى الفكر العربى فى الأردن عن تجارب الوحدة العربية المعاصرة والعرب فى أفريقيا.

وقد أسفرت هذه الندوات والمؤتمرات عن بحوث عديدة ومتنوعة نذكر منها:

● رحمة بن جابر الجلاهمة، العدد التاسع حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٦٤ .

● استقرار العرب فى ساحل شرق أفريقيا، العدد ٩ من نفس الحولية ١٩٦٥.

● المصادر العربية لتاريخ شرق أفريقيا، العدد ١٣، مجلة الجمعية التاريخية

المصرية، القاهرة ١٩٦٦ / ١٩٦٧ .

● كتاب وصف أفريقيا وتاريخها للحسن بن محمد الوزان،العدد ١١ من حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٦٨ .

● المؤثرات السياسية للحرب العالمية الأولى على إمارات الخليج العربى ، العدد ١٧، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ١٩٧١ .

● موقف الكويت من التوسع السعودى فى نجد وسواحل الإحساء ، العدد ١٧ من مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، القاهرة ١٩٧١ .

● دور العرب فى كشف أفريقيا ، مجلة عالم الفكر، الكويت ، مارس ١٩٧٣ .

● مؤلفات مصطفى كامل، من مجموعة بحوث الزعيم مصطفى كامل، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٧٤ .

● عبد الرحمن الجبرتى سيرة وتقويم، من مجموعة بحوث ندوة عبد الرحمن الجبرتى، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية والمجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٧٥ .

● بريطانيا والخليج العربى فى الحرب العالمية الثانية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت ١٩٧٥ .

● حركة الجامعة الإسلامية وتأثيرها على إمارات الخليج العربى، من مجموعة بحوث سيمنار التاريخ الحديث جامعة عين شمس ١٩٧٧ .

● الصراعات المحلية والعالمية فى أثيوبيا والصومال فى القرن ١٦، ضمن بحوث البحر الأحمر فى التاريخ، مركز بحوث الشرق الأوسط جامعة عين شمس ١٩٧٨ .

● الاستعمار البرتغالى وأثره على تفكك الروابط العربية والأفريقية، من مجموعة بحوث "العلاقات العربية الأفريقية دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار" معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٧ .

● الروابط العربية الأفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية وبداية الاستعمار الأوروبى فى القرن١٥، ضمن كتاب" العلاقات العربية الأفريقية؛ دراسة فى أبعادها المختلفة"، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٨ .

● أرنولد توينبى وناقدوه ، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، العدد التاسع ١٩٧٨ .

● الأصول التاريخية لوحدة الإمارات العربية ودور الاستعمار فى تجزئتها، ضمن بحوث" التجارب العربية الوحدوية المعاصرة"، بيروت١٩٨٠ .

● الدولة العمانية فى شرق أفريقيا ، من حصاد ندوة الدراسات العمانية ، مسقط ١٩٨٠.

● النزاع العثمانى البرتغالى فى الخليج العربى وشرق أفريقيا فى القرن ١٧، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية (باللغة الإنجليزية) القاهرة ١٩٨٠ .

● التنافس العثمانى البريطانى فى الخليج العربى (١٨٧١ - ١٩١٤) المجلة المغربية، تونس١٩٨٣ .

● تاريخ العرب فى أفريقيا ودوره فى توثيق العلاقات الأفريقية، من أعمال ندوة التفاعل بين الثقافة العربية والأفريقية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دكار ١٩٨٤ .

● الرق وتجارته فى شرق أفريقيا، من مجموعة بحوث الرق فى أفريقيا، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٥ .

● تاريخ العرب فى أفريقيا سبيل للتقارب أم للتباعد ، ضمن مجموعة بحوث العرب وأفريقيا ، جامعة القاهرة ١٩٨٧ .

● الخروج العربى عن الدولة العثمانية، من مجموعة بحوث العلاقات العربية التركية من منظور عربى، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٩٣ .

● أمن الخليج العربى فى ضوء المتغيرات الدولية والإقليمية، مركز الإمارات

للبحوث والدراسات الاستراتيجية، أبو ظبى ١٩٩٨ .

● الخلفية التاريخية لعوامل التوتر وإمكانات الوفاق بين دول مجلس التعاون الخليجى وإيران، من أعمال ندوة دول مجلس التعاون الخليجى وإيران، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، الكويت ١٩٩٩ .

● وقد ساهم مؤرخنا القدير فى العديد من البحوث والدراسات التى اضطلع بها معهد البحوث والدراسات العربية والمجلس الأعلى للثقافة ومؤسسة الكويت للتقدم العلمى وأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا، ومن أهمها:

● مشكلة الصحراء الأسبانية، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٨ .

● دولة الإمارات العربية المتحدة، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٩ .

● الأزمة اللبنانية أصولها وأبعادها المختلفة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٨٠ .

● جيبوتى، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٨٠ .

● العلاقات العربية الإيرانية، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٩٣ .

●العلاقات العربية التركية من منظور عربى، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٩٣ .

● الأمن القومى العربى أبعاده ومتطلباته ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٩٣ .

● الكويت وجودًا، الحقائق الموضوعية والإدعاءات التاريخية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ١٩٩٢ .

● كما أسهم فى تأليف كتاب تاريخ الطب فى مصر الحديثة الذى صدر منذ عدة سنوات عن أكاديمية العلوم والتكنولوجيا.

ولعلنا نؤكد أنه ما من مؤتمر يعقد حول تاريخ الخليج العربى السياسى أو

الاقتصادى والاجتماعى؛ إلا ويكون جمال زكريا على رأس الداعين له أو فى مقدمة المدعوين للاشتراك فيه، ومن تلك المؤتمرات والندوات العلمية التى عقدت فى جامعة الكويت ومؤسسة الكويت للتقدم العلمى ووزارة التراث القومى والثقافة بسلطنة عمان، واتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة؛ و كان جمال هو العمود الفقرى لتأسيسه، وقد أثمرت هذه المؤتمرات؛ فضلاً عن رسالتيه فى الماجستير والدكتوراه عن:

●موسوعة علمية تاريخية شاملة تتناول خمسة قرون من تاريخ الخليج العربى الحديث، وعلى وجه التحديد من بداية العصور الحديثة ١٥٠٧ إلى حرب الخليج الثانية ١٩٩١، أحسبها أهم مرجع عربى تناول تاريخ الخليج العربى، ومن ثم لا غنى لكل باحث يتصدى لدراسة أى فرع من فروع المعرفة التاريخية أو السياسية لهذه المنطقة.

ويتكون هذا العمل الرائد من خمس مجلدات جاءت على النحو التالى،

المجلد الأول، وعنوانه "الإمارات العربية فى الخليج العربى فى عصر التوسع الأوروبى الأول١٥٠٧- ١٨٤٠"، ويقع فى ٤٦٤ صفحة، بينما جاء المجلد الثانى عن " تطور النفوذ البريطانى فى إمارات الخليج العربية والمنافسات الإقليمية والدولية١٨٤٠- ١٩١٤"، ويقع فى ٦٠٠ صفحة. وتناول المجلد الثالث، "الأوضاع الداخلية لإمارات الخليج العربية وعلاقات الجوار١٩١٤- ١٩٤٥"، ويقع فى ٥٢٤ صفحة. فى حين تضمن المجلد الرابع "التطور السياسى والاقتصادى لإمارات الخليج العربية ووصولها إلى الاستقلال ١٩٤٥-١٩٧١"، ويقع فى٤٢٤ صفحة. وأما المجلد الخامس فقد تناول" دول الخليج العربية فى مرحلة ما بعد الاستقلال من الانسحاب البريطانى إلى غزو وتحرير الكويت١٩٧١- ١٩٩١"، ويقع فى ٥٥٥ صفحة.

ثم قدم دراسة هامة وتكاد تعد فريدة فى مجالها عن دولة البوسعيد فى عمان وشرق أفريقيا منذ تأسيسها وحتى نهاية حكمها فى زنجبار وبداية عهدها

الجديد فى عمان(١٧٤١-١٩٧٠)" نشره مركز زايد للتراث والتاريخ بدولة الإمارات العربية المتحدة فى عام٢٠٠٠، ويقع فى ٤٦٩ صفحة، ولعل من المفيد أن نشير إلى ما جاء فى كلمة المركز عند نشر هذه الدراسة حيث قال" ولا يجد المركز حاجة للتعريف بمؤلف الكتاب الدكتور جمال زكريا قاسم؛ أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس وعميدها الأسبق، فهو معروف فى الأوساط الأكاديمية باهتماماته الواسعة بدراسة تاريخ الخليج العربى وشرق أفريقيا فضلاً عن ريادته العلمية فى هذا المجال".

ولم يبق لنا إلا أن نشير إلى أن حكومة دولة الكويت قد أسندت إلى مؤرخنا الكبير جمال زكريا إعداد القسم التاريخى من الموسوعة الكويتية؛ ويتناول هذا القسم تاريخ الكويت منذ إنشائها فى أوائل القرن السابع عشر حتى حرب الخليج الثانية ويقع فى ٤٢٣ صفحة.

ولذلك لا نبالغ إذا أكدنا بلا تردد أن جمال زكريا هو عميد مؤرخى الخليج العربى.

وإلى جانب كل ذلك كان يرحمه الله عضواً فاعلاً فى مجلس إدارة أو عضوية الكثير من الجمعيات والهيئات العلمية فى الداخل والخارج ومنها؛ الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة بمصر، اللجنة العلمية لمركز تاريخ مصر المعاصر بدار الكتب والوثائق القومية، إتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، الجمعية التاريخية المغربية، جمعية دراسات البحر المتوسط " جرينتش المملكة المتحدة".

كما شغل فى سنوات متفرقة من حياته العلمية عضوية العديد من اللجان العلمية والقومية من أهمها، اللجان العلمية الدائمة لترقية أعضاء هيئة التدريس بالمجلس الأعلى للجامعات، لجنة التاريخ والآثار بالمجالس القومية المتخصصة، اللجنتان العامة والسياسية لتسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، خبير بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، خبير بلجنة التاريخ بمجمع اللغة العربية .

هذا فضلاً عن إسهامه فى كتابة عدة مقالات فى المجلات الثقافية، ومن أهمها الهلال والمصور والأهرام الاقتصادى فى مصر، ومجلة عالم الفكر فى الكويت، وجريدة الاتحاد فى دولة الإمارات العربية المتحدة، وأختير عضوًا فى هيئة المستشارين لمجلة العصور التى تصدر فى لندن، ومجلة المؤرخين العرب بالقاهرة، كما أسهم فى تطوير وتأليف الكتب المدرسية الخاصة بمنهج التاريخ فى المرحلتين الإعدادية والثانوية بوزارة التربية والتعليم بالكويت، وفى المشاركة بتأليف الكتب الجامعية الخاصة بالمتطلبات الجامعية فى جامعة الإمارات العربية المتحدة " المجتمع العربى ومجتمع دولة الإمارات العربية المتحدة"، وشارك فى ترجمة كتاب "العلاقات العربية التركية من منظور تركى" الذى صدر عن معهد البحوث والدراسات العربية بالتعاون مع مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة الإسلامية باستانبول، كما شارك فى تأليف كتاب" مصر عروبة وإسلام " الذى صدر عن المجلس الأعلى للشباب والرياضة فى عام ١٩٨٠، وفى المشروع الذى أعدته لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة عن مصر عبر العصور، وكان يعكف قبيل الرحيل على إعداد دراسة تتناول التيارات الرئيسية فى الفكر المصرى الحديث.

بقى أن أشير أن الدكتور جمال زكريا حظى بالكثير من التقدير والتكريم من قبل الدولة بمناسبة عيد العلم فى عام ١٩٦٤، ومن كلية الآداب جامعة عين شمس كعميد سابق لها، ونال جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمى فى مجال أفضل كتاب مؤلف عن الكويت، وجائزة جامعة عين شمس فى العلوم الاجتماعية فى عام ٢٠٠٢، وعلى الزمالة الفخرية لجامعة مينسوتا خلال زيارته لها فى ١٩٨٥، وتقديرًا من العديد من المؤسسات العلمية الإيجابية فى ندواتها وإصداراتها العلمية ومن بينها مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ومركز الشيخ زايد للتراث والتاريخ بدولة الإمارات العربية المتحدة ومركز دراسات الخليج والجزيرة العربية وجامعة الكويت والإمارات العربية واتحاد المؤرخين العرب ببغداد لدوره المتميز فى خدمة تاريخ وقضايا الأمة العربية،

● **ذكريات شخصية**

ولعل القارىء الكريم؛ يسمح لصاحب هذا القلم بأن يسجل بعض الذكريات التى جمعته مع الرجل الذى يندر وجود مثله فى هذا الزمان، فقد عرفته عن بُعْد أستاذا مرموقا فى تاريخ الخليج العربى، بينما عكفت على قراءة كتبه ودراساته منذ أن كنت باحثاً فى مرحلة الدكتوراه فى أوائل الثمانينات من القرن الماضى، وفى عام ١٩٨٧؛ سافرت للعمل بإحدى كليات المعلمين فى المملكة العربية السعودية وبعد عودتى صيف عام ١٩٩٢، قدمت طلباً لعضوية اتحاد المؤرخين العرب وكان مقره من قبل بغداد وبعد أحداث الغزو العراقى للكويت فى أغسطس ١٩٩٠، انتقل الاتحاد إلى القاهرة، واشترك فى تأسيسه جمال زكريا، حينذاك اقتربت منه بحذر حيث توحى خِلْقَته بأنه أرستقراطى النشأة، وخُيِّلَ إلىَّ أن وجهه الذى اكتسى بالجدية ينم عن شخصية، لا يعنيها إلا العمل فى الدراسات والأبحاث، ولا مساحة لدية للعلاقات اجتماعية، ومع كر الأيام والشهور، اتضح لى أننى أخطأت فى فهم الرجل.

والبداية كانت ذات يوم من صيف ١٩٩٢، حين دعا أ د/ حسن همام أستاذ علم الاجتماع بجامعة حلوان إلى تأسيس جمعية ثقافية وطنية أُطلق عليها جماعة الأصالة، وكان المؤسسون لها هم نخبة من اتحاد طلاب الجامعات التى عايشت الحركة السياسية المصرية بكل تفاعلاتها منذ أواخر الستينيات من القرن العشرين، ثم ضمت فيما بعد كوكبة من المثقفين المهمومين بشئون الوطن، حينذاك دعانى الزميل أ. د/ محمد صابر عرب لحضور اجتماعاتها التى كانت تعقد بصفة شبه دورية، ويدعى إليها بعض كبار الساسة والكتاب وكوكبة من أساتذة الجامعة، وفى أحد تلك الاجتماعات كان اللقاء مع جمال زكريا، وتجاذبنا نحن الثلاثة أطراف الحديث فى الشأن الجارى، واتضح لى بأن الرجل عندما تأخذه بعيداً عن الأبحاث، تتفجر فيه روح الفكاهة والمداعبة، وتكررت اللقاءات وفى كل منها أزداد معرفة بالرجل وينمو حبى له فهو ذو شخصية جاذبة يتصف بالشفافية فى التعامل، والوفاء للأصدقاء، صراحة فى الرأى وجرأة فى الحق مع

عفة فى اللسان وطيبة فى القلب، وأحسب أن هذه السِمات لا يجادلنا فيها أحد؛ ولا ينكرها عليه أحد ممن اقترب منه وعرفه حق المعرفة، واتضح أن كل ما خيَّل إلى لم يكن إلا وهماً، وتأكدت أن جمال هو الانسان الذى تطمئن لصحبته وتسعد بصداقته، وشخصية بهذه الصفات لن تجدها بسهولة، وإن عثرت عليها فلا تدعها تفلت منك، لأن الوفاء فى الصداقة وإيثار الآخرين أصبحت عملة نادرة فى زماننا هذا.

حينئذ اقتربت من أستاذى جمال قبل عقدين من الزمان، وارتبطت به قلباً وفكراً فى العقد الأخير، وفيه كنت أقرأ أفكاره واستشعر نبضات قلبه، فعرفت فيه المثالية التى يندر وجودها، فهو المؤرخ المتعمق والعالم المدقق فى أبحاثه وفيما يتناوله من موضوعات وأفكار، وهو على المستوى الإنسانى الرجل الذى لا يتوانى عن تقديم علمه وخبراته لكل من يطرق بابه من الباحثين والإعلاميين.

وفى عام ٢٠٠٥، تزاملنا فى اللجنة العلمية لمركز تاريخ مصر المعاصر، وفى العام التالى، وبترشيح من د/ محمد صابر عرب؛ انتدبت للعمل رئيساً للإدارة المركزية للمراكز العلمية، وبتزكية من د/ جمال أصبحت نائباً له فى هيئة تحرير مجلة مصر الحديثة، وهى دورية سنوية تصدر عن مركز تاريخ مصر، وكنا وعبر ساعات وفى ليال متباعدة نجلس سوياً نراجع وننسق ونختار ما سوف يعرض فى المجلة قبل دفعها إلى المطابع ليتم مراجعتها بمعرفة هيئة التحرير، وفى الوقت الذى كان هو يرأس تحريرها راح يؤكد أهمية وجهة نظرى، وبتواضع العلماء يدفع إلىَّ بكلمة التحرير التى سطرها قلمه قائلا؛ راجع هذه الصفحات.. مارأيك.. ألا من تعديل؟ كنا نتوافق دائماً على ما سوف يصدر فى المجلة فى عددها التالى، وعلى ضرورة المحافظة على المستوى العلمى الرصين الذى وصلت إليه، وأثناء هذا العمل الشاق الذى حمل د/ جمال زكريا، بلا مبالغة، العبء الأكبر فيه، كان يثير قضايا علمية غاية فى الأهمية، لأنها أمور تجرى على المسرح العربى ولها جذور فى تاريخنا، وبينما كنت أحاول الاستفادة من علمه الغزير المتدفق، كان هو أيضا يستنطق ما فى جعبتى من معلومات، وهكذا مرت

الأيام دون أن أدرى أن الوداع سيكون قريباً.

ولا يمكننا أن نغفل إسهاماته الإيجابية فى مركز تاريخ مصر المعاصر الذى كان حريصًا منذ أن أوكلت إليه مهمة الإشراف على مجلة مصر الحديثة أن يكون لها طابع الاستمرار ولا يرتبط بشخصه ويُذكر له دوره فيما وصل إليه المركز من مكانة مرموقة نتيجة للدراسات المتعلقة بتاريخ مصر الحديث والمعاصر؛ وضحت فى تلك المواسم الثقافية التى تتناول القضايا الحيوية إلى جانب الإصدارات المتنوعة وفى مقدمتها سلسلة مصر النهضة التى يشرف عليها الزميل والباحث والأديب د. أحمد زكريا الشلق.

وإن كان جمال زكريا قد تخصص فى الخليج العربى وأخرج سفراً عن تاريخ المنطقة سيظل خير شاهد على تمكنه العلمى وتفوقه فى المنهج والأسلوب، فقد طرق العديد من المجالات فى الدراسات التاريخية واستطاع أن يلج الكثير من الموضوعات وفتح أمام الباحثين والدارسين آفاقا جديدة ومجالات واسعة موضوعية وعقلانية دون أن ينفى عنه ذلك عاطفته الجياشة وإحساسه المرهف وحبه للخير، كما تميز بالإخلاص الشديد والوفاء لأستاذه الدكتور عزت عبد الكريم، وتسامحه النبيل لمن يسىء إليه، ومساعدته العلمية والإنسانية لطلابه بل ولكل من يلجأ إليه.

وأخيراً يا أستاذى ها هى مجلة مصر الحديثة؛ تلك الشمعة المضيئة التى تركتها لم ولن تنطفىء ، فضوؤها مايزال وسيظل بإذن الله مشعًا لأنك غرست بذرتها الأولى، وظللت أمينا عليها حتى أينعت وأثمرت، فَسمَتْ بك وأفاضتْ علينا بكلماتك المنيرة ، ولعل أجمل شىء يبقى بعد الرحيل ، هى تلك الذكرى التى تنير لنا الدرب ، بالعمل والمحبة والتسامح و بالتفانى لإسعاد الآخرين . لأن الحياة مهما طالت قصيرة.

فلا جزع إن فرق الدهر بيننا فكل امرىء يومًا به الدهر فاجع

وليس أصعب على نفسى من أن أكتب نيابة عن هيئة التحرير، هذه السطور

فى وداع أستاذى وأخى وصديقى العزيز الدكتور جمال زكريا، وهى سطور تحمل بعض ذكريات عنت لى؛ والتى لو اتسع المجال لعرضت الكثير من المسموح به والمسكوت عنه، ولكننى أود أن أقرر فى النهاية أنه لو أمكن تجسيد الفضيلة والتسامح والمحبة فى إنسان فهذا الإنسان هو بالقطع جمال زكريا قاسم.

فى وداع فقيد عزيز
أ. د. جمال زكريا قاسم

والدى جمال

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥- التوبة)

لم أشعر بالعجز فى حياتى كلها، كما شعرت عندما طلب منى الاستاذ الدكتور محمد حلة أن اكتب كلمة عن أبى رحمه الله، فأنا ممزقة تمامًا بين حزنى لفراق هذا الأب والإنسان العظيم و عجزى عن كتابة ما يليق به.... والله لم تمنحنى ما وهبه من البراعة فى الكتابة و الرشاقة فى الأسلوب. و لعلها مجرد محاولة لأفصح عن الجانب الشخصى لذلك الإنسان الذى لا يعوض.

أجلس الآن أمام جهاز الكومبيوتر فى نفس المكان الذى جلس فيه ساعات طويلة يكتب ويشرك العالم معه فى علمه وثقافته الغزيرة...لا أبالغ إذا قلت أن أبى قد أفنى عمره ووقته من أجل العلم، يكفى ما قاله أستاذه الراحل العظيم المرحوم أحمد عزت عبد الكريم عنه" إن جمال قد صرف أحلى سنوات عمره وهى سنوات الشباب وأخذ يتجاوزها إلى سنوات الكهولة الناضجة وهو فى محراب العلم لا يأخذ من أسباب الشباب والدنيا إلا بقدر". نعم فقد قضى معظم وقته وهو يكتب أو يقرأ كتابًا أو يناقش ويعلم تلاميذه. أتذكر أمى وهى تشفق عليه من إجهاد نفسه وتحاول أن تجعله يأخذ قسطًا من الراحة ... ولكنك يبتسم و يطلب منها أن تمهله بعض الوقت... ويمتد هذا الوقت لساعات وساعات طويلة...يكفى أن أقول أن آخر مكان ذهب إليه قبل ذهابه إلى المستشفى كان إلى جامعة عين شمس لكى يرأس لجنة لمنح أحد تلاميذه درجة الدكتوراه. كم تحامل على نفسه وهو فى شدة المرض حتى لا يكون سببًا فى تعطيل تلميذه. هذا هو أبى مثال للالتزام و التفانى من أجل الآخريين. حتى فى أيامه الأخيرة أتذكره وهو يطلب من الطبيب أن يمنحه بعض الوقت و يسمح له بالخروج من المستشفى لساعات قليلة ليتم مناقشة تلميذ آخر من تلاميذه، ولكن إرادة الله قد سبقت.

إن أبى داخل البيت مثال للأب كما يجب أن يكون، منحنا القوة والصلابة فى المواجهة، ودائما يترك لنا المساحة الكافية لاتخاذ قراراتنا وتحمل العواقب كلها ولكن لم يبخل أبدًا بالنصيحة، عندما كنت أشكو له من أى ظلم أتعرض له فى حياتى العملية، كان يطلب منى الصبر وكما كان يقول دائما "فى النهاية لا يصح إلا الصحيح". كانت أسعد أوقاته عندما ننجح فى دراستنا أو فى عملنا. فهو أب حنون جدًا و كان يفضلنا دائمًا على نفسه فنحن دائمًا فى المقدمة و هو فى النهاية. كانت أمتع لحظاته مع أحفاده يجلس معهم و يحكى لهم الحكايات بالرغم من مشاغله الكثيرة. ولا أنكر أن أجمل حكايات كانت التى يرويها أبى، حتى أنا وأمى كنا نسترق السمع لكى لا يفوتنا جمال أسلوبه وطريقته المشوقة الجميلة.

لا أستطيع أن أحصر كل ما تعلمته من أبى، ولكن الالتزام والدقة وقيمة الوقت والإحسان فى العمل كانت أهم مميزاته.. وهو دائمًا سيبقى مثلى الأعلى فى الحياة.

لم تكن رحلته فى الحياة سهلة كانت رحلة طويلة من الكفاح والمثابرة والدأب و الإرادة والتصميم والعمل بلا انقطاع.. وشاركته والدتى الغالية فى هذه الرحلة. كانا مثال للزوجين الرائعين، وعلاقة جميلة من التفاهم والحب والتواصل أتذكر أبى فى أيامه الأخيرة وهو يقول لها أنها كل شىء له فى الحياة.

أبى هو مثال للتواضع والإنسانية والمراعاة لمشاعر الآخرين. لا أذكر أبدًا أن سمعته يذم أحدا، أو يغتاب أحد. أبدًا... كان متواضع مع الصغير والكبير ومترفع دائمًا على صغائر الأمور. جميل فى كل تعاملاته وعلاقاته.

وعندما نتذمر يذكرنا دائمًا بفضل الله سبحانه وتعالى علينا و يذكرنا بمعاناة الآخرين وأننا يجب دائمًا أن نشكر الله ونحمده على نعمه الكثيرة.

شكرًا لكل من أحب أبى من تلامذته وأصدقائه. شكرا لكل هذا الوفاء والحب. فتلاميذ أبى وأصدقائه دائمى السؤال عنا بكل الحب والصدق الذى يحملونه لهذا الرجل العظيم.

و فى النهاية إلى لقاء يا أبى الحبيب... وليجمعنا الله ويجعل ملتقانا فى الجنة بإذن الله... اسأل الله أن يرحمك وأن يلحقك بالشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا. أنت دائمًا معنا فى قلوبنا، وفى ذهننا، معنا فى كل لحظة إلى أن نلتقى بإذن الله.

مروة جمال زكريا

فى وداع فقيد عزيز

مع أننا فى مجال دراسة التاريخ تعودنا أن نكتب عن " الراحلين " .. فهذه هى المرة الأولى التى أمسك فيها بالقلم لأكتب عن فقيد عزيز ، وهو أمر ليس بالسهل على الإنسان أن يفعله . وتتضاعف صعوبة الأمر إذا كان الفقيد بقامة وأخلاق الراحل المؤرخ الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم ، والذى يعز علىَّ أن أكتب عنه بعد وفاته .

مرت معرفتى بالفقيد على مرحلتين : الأولى منذ منتصف الثمانينات ، منذ أن كنت طالباً بالفرقة الثالثة بآداب المنصورة . وقتها كانت معرفتى به معرفة عامة ومن جانبى فقط ، حيث كنت من المترددين على سمنار التاريخ الحديث بآداب عين شمس . والحقيقة أننى حينها كنت أهاب الرجل دون أن أقترب منه ، ودون أسباب بعينها ، سوى أن البيئة العلمية والاجتماعية التى نشأت فيها علمتنى أن أحترم – بل وأهاب – أساتذتى ، وهو الاحترام الذى داخلته الهيبة أحياناً ، بل والخشية ، خاصة وقد كان السمنار آنذاك يحضره ويحاضر فيه الكثير من المؤرخين المصريين والعرب والأجانب ، ممن كان المرء يسعد برؤيتهم – ولو عن بعد – والاستماع إليهم . وحينما ذكرت ذلك بعدها للدكتور جمال زكريا، ضحك كثيراً ولامنى ، والأهم أنه شجعنى على أن أعلم الطلاب أن يحترموا أساتذتهم ولكن لا يهابوهم أو يخشوهم . المرحلة الثانية من معرفتى به بدأت منذ أكثر من أربع سنوات ، حين قابلته عام ٢٠٠٣ بمكتب الأستاذ الدكتور محمد صابر عرب حينما كنت أسأل عن إمكانية أن أنشر كتابى عن " الخطاب السياسى الصوفى فى مصر " فى إصدارات دار الكتب والوثائق . لقد سألنى عن فكرة العمل ، وحين بدأت فى توضيحها ، وجدته مشجعاً لها ، بل وأثنى على مثل هذه الموضوعات والأفكار ، وعلى الأجيال الجديدة من الباحثين المصريين الذين يُقدمون على دراسة الموضوعات الجديدة. وبمنتهى البساطة اقتربت منه، وبالأحرى قربنى هو منه .. فطلب منى أن أكون على اتصال به ، وبعدها دعانى

لزيارته فى بيته ، حيث أصبح ذلك من المعتاد ، وخاصة فى ليالى رمضان . والواقع أننى اكتشفت أننى أمام شخصية على قدر هائل من التعاون والطيبة والتواضع والكرم ، ناهيك عن علمه وروحه المرحة ، ورغبته فى مساعدة الآخرين ممن يحتاجون للمساعدة العلمية.

ليس بمقدروى أن أكتب هنا عن أعمال الراحل العديدة ، فتلك قضية أخرى ليس هذا مجالها ، ولكنى أستطيع أن أشير إلى بعض الأمور التى لمستها فيه بصدق .

الأمر الأول : ويتصل بإشرافه على مجلة " مصر الحديثة " . لقد كان الدكتور جمال زكريا حريصاً للغاية على تجهيز الأعداد القادمة للمجلة ، وقبلها بفترة طويلة ؛ فتراه يجهز للعدد المقبل ، وكذلك عدد السنة التى بعدها، بل والتى بعدها، ويحاول أن يستحث ويشجع الباحثين على المشاركة فيها . ورغم كبر سنه وكثرة أعبائه ، كان من صفاته الدقة الشديدة فى مراجعة كل مقالة على حدة ، سواء من النواحى العلمية أو النحوية أو المطبعية ، حتى قارنته باليابانيين فى دقة نظامهم واهتمامهم بالتفصيلات الدقيقة والتى تبدو وكأنها صغيرة . ومن فرط ما لاحظته من دقته وحرصه ، وصفته ذات مرة بأنه " يابانى النظام " وهو وصف أسعده وضحك له كثيراً ، لكنه فى الوقت نفسه أكد على أنه يفعل ذلك إحساساً منه بالمسئولية ، ولرغبته فى أن يصبح للمجلة اسمها واحترامها بين المجلات المتخصصة فى الدراسات التاريخية ، وأنه يخشى أن تصيبها الشيخوخة بعد فترة ، مثل كثير من مشاريعنا . ولهذا كان الراحل دائماً ينتابه هاجس الخوف على قدرة المجلة على الاستمرار بكفاءة ، بل ويرجو أن يصبح كل عدد أفضل من العدد السابق عليه . ولعل هذا كان أحد الأسباب الرئيسية التى جعلته دائم البحث عن باحثين جدد ، وعن موضوعات ومحاور جديدة ، وكم طلب منى – كما من غيرى – أن أتحدث إلى شباب الباحثين – خاصة فى الأقاليم – للإسهام ببعض بحوثهم فى المجلة .

الأمر الثانى : هو إيمان الراحل حتى اللحظات الأخيرة بالأجيال الجديدة من الباحثين ، وبالموضوعات التى يفكرون فيها أو يطرحونها فى كتاباتهم . لقد كان حريصاً دائماً على الاستماع إلى ما يقدمه هؤلاء ، بل وكانت هذه السمة من السمات الطاغية على فكره وممارساته العلمية ، وهو ما يظهر فى موضوعات البحوث التى نشرتها مجلة مصر الحديثة . وهنا لا يمكن للمرء إلا أن يسجل باحترام هذه الروح من مؤرخ مثله ينتمى إلى جيل يسبق أجيالنا بأجيال ، وكان من الممكن ألا يوافق على ذلك ، بل وكان من الممكن أن يستهين به . والحق أننى ما زرته أو قابلته مرة إلا وطلب منى الحديث معه عن الأفكار الجديدة لدى الأجيال الجديدة من الباحثين فى السمنارات والمؤتمرات .

الأمر الثالث : هو احترام الفقيد للجميع بدون استثناء ، رغم الاختلاف أحياناً. لقد اكتشفت فيه قدرة عالية على النقد وعلى تقييم المواقف وفرزها، كما كان يقدر من المثقفين والمؤرخين ذوى الروح النضالية والقتالية، ناهيك عن أنه كان حكاءً وصاحب نكتة وطرفة ، وهو أمر يعرفه عنه كل من اقترب منه. ومع ذلك فإنه كان هادئاً ومتوازناً ، احترم الجميع كبيراً وصغيراً ، حاضراً وغائباً، حياً وميتاً ، ولا أذكر أنه ذكر أحداً بسوء .

رحم الله جمال زكريا الذى خسرناه جميعاً .. خسرته أسرته الصغيرة وعائلته، وخسره كل أصدقائه وتلامذته ، وخسرته مدرسة التاريخ الحديث : المصرية والعربية . خسرناه نموذجاً على قدرٍ عالٍ من العلم والأخلاق والتسامح والروح اللطيفة والمداعبة . رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

د. محمد صبرى الدالى

أستاذى ....الأب والمعلم فى أقسى الظروف

لحق أستاذى بركب الصالحين فلماذا يا جراحى تنزفين

ولماذا يافؤداى تشتكى ولماذا يادموعى تذرفين

فارق الدنيا التى تفنى إلى منزل رحب وجنات وعين

راحل ما غاب إلا جسمه ولنا من علمه كنز ثمين

رحل أستاذى عن دنيا تاركا فى نفوسنا حزنًا وألمًا عميقًا ، بعد أن انتفع بعلمه الكثيرون فى مصر والعالم العربى ، والتف حوله الطلاب من جنسيات عدة، كان لهم نورا ، وكان لهم أبا رحيماً جواداً كريماً .

على الرغم من أن معرفتى بأستاذى رحمه الله امتدت لأكثر من أحد عشر عاما ، إلا أن الأشهر الثلاثة الأخيرة من حياته تركت فى نفسى أثرًا بالغًا أظنه يبقى معى إلى آخر العمر ، فما رأيته من أستاذى خلال هذه الفترة القصيرة ، وما تعلمته منه كان كثيرا إلى درجة تفوق الخيال ومؤثرًا إلى درجة أنه زلزل نفسى ، ولعلى أنقل لكم بعض مما تركته هذه الأيام فى نفسى من آثار ، عسى أن نجد فيها نبراسا يضىء لنا الطريق ، ودروسا نستنبط منها العبر ، وطاقة تشحذ همتنا .

بدأت هذه الفترة فى أواخر شهر سبتمبر ٢٠٠٧ ، حيث كان مقررًا أن يتم أستاذنا مناقشة رسالتى الدكتوراه لإثنين من تلاميذه كنت أحدهما ، والأخر طالب سورى هو رشيد شيخو ، بعد صيف شاق راجع أستاذنا خلاله ما يزيد عن ستة رسائل كاملة إلى جانب أعماله ودراساته الأخرى ، وكان قد تحدد بالفعل موعد مناقشة رشيد فى التاسع والعشرين من هذا الشهر ، وإذ برشيد يبلغنى قبلها بيوم واحد فقط أن المناقشة تأجلت بسبب مرض أستاذنا المفاجئ ودخوله المستشفى ، وظننا أن الأمر لا يعدو كونه مرض عارض يتعافى منه بعد يوم أو يومين ويعود بعدها إلى كامل صحته ، ولكننا عندما ذهبنا أنا ورشيد لزيارته

وجدناه فى حالة من الضعف الشديد لم نعهدها فيه ، وعلى الرغم من ذلك إذ به يبلغنا أنه كان يرغب فى أن يطلب من الأطباء أن يحقنوه بما يمكنه من الوقوف على قدميه وتسكين ما به من آلام حتى يتمكن من الخروج من المستشفى لساعتين لكى يحضر مناقشة رشيد ثم يعود بعدها إلى المستشفى مرة أخرى لاستكمال العلاج ، كم كانت دهشتنا أنا وزميلى من قول أستاذنا .

وما أن سمح له الأطباء بالخروج من المستشفى حتى قرر فى اليوم التالى لخروجه أن يتم مناقشة رشيد فى ظرف بضعة أيام على الرغم مما به مرض ، ولما جاء هذا اليوم حضر أستاذى إلى الكلية ، يلتف حوله العديد من تلاميذه من أستاتذنا الأوفياء ، وعلى الرغم مما كان يعانى منه من ضعف إلا أنه كان يصر على ألا يساعده أحد ، فكان يستند على جدران الكلية كأنه يستمد منها القوة أو يودعها لآخر مرة ، وينتهى استاذى من المناقشة وأنفاسه تتلاحق من فرط الإجهاد ، ولكنه مع ذلك يلح على الأستاذ الدكتور أحمد زكريا الشلق وكان أحد عضوى لجنة المناقشة المشكلة لفحص رسالتى لكى يتفقا على موعد لمناقشة الرسالة قبل أن يدخل إلى المستشفى للمرة الثانية ، وكأنه كان يشعر بأنها المرة الأخيرة ، غير أن الأستاذ الدكتور أحمد زكريا كان يشعر بما يعانيه أستاذى من آلام ، وكان يشفق عليه من إجهاد لا مبرر له ، ومن عمل قد لايضير أحد أن يؤجل لعدة أيام.

وكنت دائما أسأل نفسى خلال هذه الفترة لماذا يفعل أستاذنا معنا هذا ، وماذا فعلنا لكى نستحق منه هذا الاهتمام ، وكانت الإجابة دائما أن عظمة وقدر هذا الرجل هى السبب وليس نحن فهو من كان يسبغ اهتمامه ورعايته على الجميع دون أن يسأل نفسه هل يستحقون هذا الاهتمام أم لا .

وخلال الفترة التى قضاها أستاذى فى المستشفى ما من مرة أزوره فيها إلا ويطلب منى أن يقوم بالاعتذار عن رئاسته للجنة فحص الرسالة الخاصة بى ، وأن يسندها إلى أحد الأساتذة حتى لا يكون سببا فى تعطيل مستقبلى ، وحينما

كنت أبلغه بأننى سوف أنتظره مهما طال الوقت كان يغضب ويطالبنى أن أبحث عن مصلحتى حتى أننى أصبحت أتجنب أن يرانى ، وألا أزوره إلا وهو نائم ، ومع مرور الأيام زادت ألامه قسوة وزاد معها إحساسه بأنها النهاية ، واكتشف الأطباء حقيقة مرضه فاتفقوا على أن يخفوا عنه هذه الحقيقة ، غير أنه كان يشعر وحتى قبل أن يعرف الأطباء ، وتحملت السيدة زوجته عبئًا رهيبًا حتى تحافظ على روحه المعنوية حتى تكون معينًا له فى مقاومة المرض ، وبدلاً من أن يكون من حولها عونا لها ، إذ بها هى من تبسط رعايتها على من حولها ، وتهتم لشأننا وكأنها تقوم بدور أستاذنا .

وقد فكر أستاذى أمام إصرارى على انتظار شفائه ، فى أن يتم مناقشة رسالتى فى المستشفى على اعتبار أنها جزء تابع للجامعة ، كما كان يطلب من الأطباء أن يسمحوا له بالخروج من المستشفى حتى يتمكن من إتمام المناقشة الخاصة بى ثم يعود بعدها إلى المستشفى ، ولكن حالته الصحية كانت تتدهور بسرعة كبيرة ، فأصر على أن يعتذر عن رئاسة اللجنة ، وطلب من الأستاذ الدكتور عادل حسن غينم أن يحل محله فى لجنة المناقشة ، وطلب من الأستاذ الدكتور أحمد زكريا أن يتم الإجراءات الضرورية لذلك ، ولبى الجميع رغبة أستاذى بعد أن أيقنوا أنه لا يجب أن نضغط عليه بما يزيد من آلامه ، وألا نترك عبئًا نفسيًا يؤلمه أكثر مما به من ألم ، خاصة بعد أن تكررت الأزمات التى استدعت دخوله إلى العناية المركزة أكثر من مرة، حتى فاضت روحه إلى بارئها بعد ثلاثة أشهر من المرض ليترك فى نفوسنا ألمًا سيظل باقيًا ، كما سيظل ما تعلمناه باقيًا .

وكم وجدت من مشقة فى كتابة هذه الكلمات ، ولكننى رأيت أنها وإن كانت تصور أحزانًا ثقيلة على النفس ، إلا أنها تحمل كذلك قيما غالية أصر أستاذى أن يختم بها حياته ورأيت من واجبى أن يعرف بها الآخرون ، لا بغرض المعرفة فقط ولكن للتعلم أيضا ولاكتساب الثقة فى أن هذه الصفات الجميلة الرائعة لازالت موجودة فى عالمنا الذى غلبت عليه المصالح وحب الذات ، وعملا بقول

الله تعالى فى الآية التاسعة من سورة الحشر " والذين تبوءو الدار والإيمن من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " . وأشهد الله أن ما رأيته من أستاذى خلال فترة مرضه لهو دلائل رضا من الله سبحانه وتعالى.

وأخيرًا فإن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شىء عنده بأجل مسمى ، وإن القلب ليحزن ، والعين لتدمع ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا لفراقك يا أستاذى لمحزونون ، وإذا كان الموت مصيبة كما قال الله سبحانه وتعالى ، فالمصيبة أعظم بفقدان العلماء ، ومع غمرة الحزن بفقد أستاذنا لا يسعنا إلا أن نستحث أنفسنا على طلب العلم النافع والترحم على أستاذنا والوفاء له ، فالحر من راعى وداد لحظة ، وانتمى لمن أفاده لفظة ، وإن كنا لا نملك أن نجزى استاذنا عما أسداه لنا من معروف ، فإننا نسألك اللهم أن تجزيه بالحسنات إحسانًا، وبالسيئات عفوًا وغفراناً ، واغفر له ولنا يارب العالمين ، وشفّع فيه سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، واحشره مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، واحشرنا معهم بفضلك وإحسانك وتوفيقك يارب العالمين .

د محمد عبد المؤمن